﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾

[يونس: 87]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مآلُ التّوكّلِ على اللهِ وتفويضُ الأمرِ إليهِ زيادةٌ في الطّمأنينةِ

لَمّا أجابَهُ قومُهُ إلى إظهارِ التّوكُّلِ عليهِ سبحانَه، وتفويض أمرِهِ إليهِ، أتبَعَه ما يزيدهُ أمنًا وسكينةً، من توطُّنهم في أرضِ العدوِّ كنايةً عن عدمِ المبالاةِ، وأن يجعلوا بيوتَهُمْ متعبَّداتٍ لا يَطَّلعُ عليها فرعونُ وملَؤُهُ مِنَ القومِ الكافرينَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبَوَّءَا﴾: أصل (بوأ) يَدلُّ على الرُّجُوعِ إلى الشَّيءِ[2]، يُقَالُ: بَاءَ يَبُوءُ بَوْءًا، إذَا رَجَعَ، وَالباءَةُ والْمَبَاءَةُ: الْمَوضِعُ الَّذي تَبُوءُ إليه الإبلُ، هذا أصلُها، ثُمَّ جُعِلَت عِبارةً عَنِ الْمَنْزِلِ مُطلقًا، ثمَّ كُنِّيَ بها عَنِ النِّكَاحِ؛ لأنَّ مَن تزوَّج امرأةً بَوَّأها مَنْزِلًا[3]. والتَّبوُّء: تَفَعُّلٌ مِنَ البَوْءِ، أي: الرُّجُوعِ، كَأنَّ صَاحِبَ الْمَسْكَنِ يُكَلِّفُ نَفْسَهُ الرُّجُوعَ إلى مَحَلِّ سَكَنِهِ، ولو كانَ تَبَاعَدَ عنه في شُؤون اكتِسابه. والمُراد بالتَّبَوُّءِ في الآية: اتِّخَاذ مكانٍ للسَّكن.

2) ﴿قِبۡلَةٗ﴾ أَصْلُ القِبْلَةِ مِنَ المُقَابَلَةِ، وهي مُواجَهَة الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ[4]. والقِبْلَةُ: الجِهَةُ، يُقال: لَيْسَ لِفُلانٍ قِبْلَةٌ، أيْ: جِهَةٌ يَتَوَجَّهُ إلَيْها ويُقْبِلُ عليها[5]. وتُطلَقُ القِبْلَةُ على كُلِّ ما يُستَقبلُ مِنَ الأشْياءِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/178.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بوأ).
(3) ابن عّباد، المحيط في اللّغة، والمطرّزيّ، المغرب، وابن منظور، لسان العرب: (بوأ).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبل).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/51.

وَيُتَوَجَّهُ إِلَيْهِ، يُقال: أَيْنَ قِبْلَتُكَ، أَيْ: الشَّيْءُ الَّذي تُريدُ التَّوجُّهَ إِلَيْهِ[1]. وَالْقِبْلَةُ: اسْمٌ في العَرَبِيَّةِ لِجِهَةِ الكَعْبَةِ، وتلكَ الجِهَةُ هي ما بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ[2]، وجَمْعُ القِبْلَةِ: قِبْلَات. والمُراد بالقِبلة في الآية: جهةُ الكعبة[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أوحَى إلى موسَى وأخيه هارونَ أن يتَّخِذا لقومِهما بيوتًا في مِصرَ، تكونُ مساكِنَ لهم، وأن يجعَلوا بُيوتَهم مساجِدَ يُصلُّونَ فيها، وأن يؤدُّوا الصَّلاةَ المفروضةَ في أوقاتِها، وأن يبشِّرَ موسى المؤمنينَ بالنَّصرِ والثَّوابِ منه ﷻ[4].

تأكيد أهميَّةِ الصَّلاة ووجوبِ إقامتِها في كلِّ الأديان وعلى كلّ حال

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوَصْلِ بالعطفِ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ الآيةَ، معطوفةٌ على قولِه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، وتَحتمِلُ هذهِ الآيةُ أن تكونَ معطوفةً على مجموعِ الكلامِ السّابق؛ فيكونَ من بابِ عَطفِ القِصّةِ على القِصّة؛ فإنّ هذهِ القَصصَ هي الأطوارُ الّتي مرّ بها مُوسى عليه السلام[5].

العطفُ على ما سبقَ أو العطفُ على مجموعِ الكلامِ

دلالةُ الوحي، وإسنادُهُ إلى ضميرِ التّعظيمِ:

دلالةُ الوحي في الآيةِ على معنى القولِ[6]، ثمّ إسنادُه إلى ضميرِهِ تعالى ليَخْلعَ عليهِ التّعظيمَ والتّفخيمَ بما لهُ تعالى مِنَ العَظَمَةِ

في الوحي معنى القولِ الدّالّ على العَظَمَةِ البالغةِ

(1) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 384، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قبل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/266.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/266.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/260، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/289، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/531، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 372.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/264.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/171.

البالغةِ[1] والإجلالِ، فإنّ في ذلكَ تعظيمَ الحقّ ﷻ، وبيانَ ارتفاعِ منزلتهِ، وإدخالَ المهابةِ في نفوسِ المخالفينَ.

دلالةُ وقوعِ الوحي إلى مُوسى وهارونَ:

أمـرُ الـوحـي مِـنَ الأعـمـالِ الـرّاجـعـةِ إلى تدبيرِ أمرِ الأمّةِ الّـتـي يـشـتركُ فيـهـا الـرَّسـولُ ومُؤازِرُه

قولهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ وقوعُ الوحي إلى مُوسى وأخيهِ ﷺ كونهُ مِنَ الأعمالِ الّتي تعودُ إلى تدبيرِ شأنِ الأمّةِ، فيشتركُ فيها الرَّسولُ ومَن يُؤازرُه، وهو هنا أخوهُ هارونُ[2] ﷺ.

بلاغةُ المجازِ العقليّ في الآيةِ:

مُـوسى وهـارونُ هما سببُ تَبَوُّءِ قومِهِمَا للبيوتِ

الفاعلُ في قولهِ تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾ هو الّذي يسكنُ بالمباءَةِ، لكنّه أسندَهُ إلى ضميرِ مُوسى وأخيه ﷺ من بابِ المجازِ العقليِّ لعلاقةِ السّببيّةِ؛ فهما سببُ تبوُّءِ قومِهما البيوتَ المُتَّخَذَةَ للسّكنى، والقرينةُ أنّ جَعْلَ المباءَةِ كان لأجلِ القومِ[3].

سِرُّ إظهارِ ﴿مُوسَىٰ﴾:

خُـصّ مُـوسى بـالـذّكرِ لسَبْقِهِ بـالـدّعـوةِ وأصالتهِ فيها، وهـارونُ معاونٌ لهُ ومؤازرٌ

وفي إظهارِ ﴿مُوسَىٰ﴾ في فعلِ الوحي وتخصيصهِ بالذّكرِ سِرٌّ، وهوَ أنّهُ كانَ سابقًا في الدّعوةِ، وهوَ الأصلُ فيها، أمّا هارونُ فهو معاونٌ لهُ ومؤازرٌ[4].

وجهُ التّعبيرِ عن هارونَ بلفظِ ﴿وَأَخِيهِ﴾:

الأخُ مؤازرٌ ومُناصرٌ لأخيهِ، وقصدُهُما واحدٌ

في قولهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ لم يُصَرَّحْ بذِكْرِ هارونَ؛ وإنّما كُنّي عنهُ بلفظِ (الأخِ)؛ لتقدُّمهِ في الذِّكْرِ أوّلًا في قولهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [يونس: 75][5]، وهو المناصِرُ والمُعينُ، والأصلُ في (الأخِ) من (وَخَى) إذا قصدَ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/178.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/264.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/265.
(4) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة خصائص السور: 4/46.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/96.

أي: إنّ الأخَ يَقْصِدُ قَصْدَ أخيهِ[1]؛ فَقَصْدُ هارونَ في الرِّسالةِ هو قَصْدُ موسى نفسِه، لا يخرجُ عنه.

دلالةُ صيغةِ التّفعُّلِ في لفظِ التّبوُّء:

صاحبُ المسكنِ يتكلّفُ العودةَ إلى مسكنِهِ بعدَ تباعدِهِ عنهُ

وردَ (التّبوُّء) في قولِهِ تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾ على صيغةِ التّفعُّل، مِنَ البَوءِ بمعنى الرُّجوعِ، وفي ذلكَ دلالةٌ خفيّةٌ كأنّ صاحبَ المباءَةِ أو السَّكنِ يتكلّفُ العودةَ إلى مسكنِهِ بعدَ تباعدِهِ عنهُ، بما يَشْغَلُهُ مِن اكتسابِ عيشِه؛ صيدًا أو احتطابًا أو قطفًا للثّمارِ أو نحوهُ[2].

ولمّا كانتْ صيغةُ (تَفَعَّلَ) دالّةً على الفعلِ المُتكرِّرِ المُؤذِنِ بالتّكثيرِ[3]؛ فإنَّ المعنى مُتَحقِّقٌ هنا، وهوَ كَثْرةُ ممارستِهمُ التّبوّءَ؛ وهو الرجوعُ إلى مساكنهم بعدَ انقضاءِ شؤونِ اكتسابهم المَعيشيَّةِ مِنَ الصّيدِ والاحتطابِ وغيرِها.

التّعبيرُ عنِ التّبوُّءِ بالمصدرِ المُنْسَبِكِ:

دلالةُ المصدرِ المُنسَبِكِ تجدّديَّةٌ في الحالِ والاستقبالِ، بما يناسبُ رجوعهم المتكرّرِ لمباءتهم

عبّرَ عنِ التَّبوُّءِ بالمصدرِ المنسبكِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾، ولم يُعبّرْ بالمصدرِ الصّريحِ (تبوئهم)؛ لدلالةِ المصدرِ المنسبكِ على التّجدُّدِ في الحالِ وفي الاستقبالِ؛ إذْ يدلُّ على الحدوثِ معَ لمحِ الزّمنِ؛ وهوَ مُنبِئٌ عن حالهم في تجدُّدِ رجوعهم إلى مساكنهم، بما يُعطيهِ معنى التّبوُّءِ، فضلًا عمّا في المصدرِ المنسَبِكِ مِنَ التّعبيرِ عن حَدَثِ تبوُّءِ البيوت، بمعزلٍ عن كيفيّته.

معنى اللّامِ في قولِهِ: ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾:

تحتملُ التعليلَ؛ أي لأجلِ قومكما، وتحتملُ التّوكيدَ

اللّام في قولِهِ تعالى: ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ تَحتملُ أن تكونَ للتّعليلِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أخا).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/264.
(3) الرّضي، شرح الشّافية: 1/105.

والسّببيَّة، على معنى: لأجلِ قومِكُما[1]، وتَحتملُ أن تكونَ زائدةً لأجلِ التّوكيدِ، على تقديرِ: بَوِّءَا قومَكُما؛ أي: أنزلاهُم المنزلَ الملزومَ[2].

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِمِصْرَ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِمِصْرَ﴾ تَحتملُ الظّرفيةَ[3]، وهو أحدُ معانيها المطّردة في لسانِ العربِ، وهو هنا كذلكَ؛ فالمعنى أن يتّخذا بيوتًا بأرضِ مصرَ[4]، أي: في أرضِ مصرَ.

الباء دالّـةٌ على الظّرفيّة

دلالةُ تحديدِ المكانِ ﴿بِمِصْرَ﴾:

تدلُّ كلمةُ مصرَ على البلدِ المعروفِ، لأنّها مُنعَتْ مِنَ الصَّرفِ، ولأنّهم عثروا على جثمانِ فرعونَ في حدودِها، ولكن يجوزُ أن يكونَ معناها الإقليمَ المعروفَ المُمتَدّ مِنَ البحرِ حتّى بلادِ السّودانِ[5].

معناها الإقليمُ المعروفُ الممتدّ مِنَ البحرِ حتّى بلادِ السّودانِ

إيثارُ لفظِ (البيوتِ) على (المساكنِ) و(الدُّورِ):

في قولِه تعالى: ﴿بُيُوتًا﴾ آثَرَ استعمالَ لفظِ البيوتِ على الدّورِ أو المساكنِ؛ لأنَّ هذهِ البيوتَ عبارةٌ عنْ خيامٍ أو أخصاصٍ أُمروا باتّخاذِها حالَ الارتحالِ والتَّنقّلِ؛ لأنّها ليستْ ديارَهمْ ومساكنَهمُ الّتي كانوا يسكنونهَا قُربَ مدائنِ فرعونَ[6]؛ فهي أقربُ للمساكنِ العابرةِ الّتي يأوونَ إليها للمبيتِ فحسب.

البيوتُ تُتَّخذ في حالِ الارتحالِ، والدِّيار والمساكن تكون للإقامة

وجْهُ جمعِ (البيوت) جمعَ كثرة:

يناسب جمعُ البيوت على صيغة الكثرة (فُعُول) الدّلالةَ على كَثْرتها، وكَثْرة ساكنيها، فضلًا عن كون المحلّ المُنتقَلِ إليه يصلح للعيْش والاستقرار؛ فهي أدعى لكثرة المساكن.

جمع (البيوت) دليل كثرتها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/265.
(2) العُكْبريّ، التّبيان: 2/684.
(3) المُراديّ، الجنى الدّانيّ، ص: 40.
(4) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/500.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6160.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/265.

علَّةُ تنوينِ البيوتِ وتنكيرِها:

التّعبيرُ في قولِه: ﴿بُيُوتًا﴾ وردَ مُنوَّنًا مُنكَّرًا، وعِلَّةُ ذلكَ أنّ هذهِ البيوتَ لم تكنْ معروفةً لديهِم أوَّلًا، وهيَ غيرُ البيوتِ الّتي سكنوا فيها[1].

البيوتُ المأمورُ بتبوُّئِها لم تكنْ بيوتَهم، وإنَّما كانت مجهولةً لهم

بلاغةُ المجازِ العقليّ في جملةِ ﴿تَبَوَّءَا﴾:

فعلُ التّبوُّءِ في قولِه تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ مِن بابِ المجازِ العقليّ؛ فإنَّ التّبوُّءَ اتخاذُ المباءَةِ، وهو المرجعُ الّذي يؤوبُ إليهِ الإنسانُ؛ فهو التّوطّنُ، فإذا توطّنَ الإنسانُ مكانًا ما؛ عادَ إليهِ مِرارًا وتكرارًا، وإنْ غابَ عنهُ لطارئٍ[2].

الإنسانُ حين يتَّخذُ وطنًا لهُ فهوَ حتمًا سيُعاودُه مِرارًا

دلالةُ العطفِ بالواوِ:

قولُه تعالى: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ معطوفٌ على اتّخاذِ البيوتِ مباءَةً؛ وهو ما جعل بعضًا مِنَ المفسِّرينَ يذهب إلى أنّ هذهِ البيوتَ مُتَّخَذَةٌ للعبادةِ كالمساجدِ[3]، بجامعِ العودةِ إليها دائمًا، وعلى وجهِ الاستمرارِ؛ فهذا هو شأنُ المسجدِ، يعودُ إليهِ الإنسانُ دائمًا لعبادةِ ربّهِ.

هذهِ البيوتُ مُتَّخَذَةٌ للعبادةِ، بجامعِ العودةِ إليها على وجهِ الدَّوامِ

وإذا كانَ جَعْلُ البيوتِ قِبْلةً على معنى جَعْلِها مُتقابلةً، بعضُها يُقابلُ بعضًا[4]، للحراسةِ وسُهولةِ المراقبةِ والأمنِ؛ فإنّ العطفَ مُتعيِّنٌ أيضًا في العِلّةِ مِن جَعْلِ البيوتِ قِبْلةً.

مقابلةُ البيوتِ للحراسةِ والأمنِ معطوفٌ على اتّخاذِها مَبَاءَةً

توجيهُ جمعِ الفعلِ، وفاعلُه ضميرُ الرَّفعِ (الواو):

وأسنَدَ فعلَ الجَعْلِ ﴿وَٱجْعَلُوا۟﴾ إلى حرفِ الواوِ الدّالّ على ضميرِ الجماعةِ؛ لأنّهُ أمْرٌ إلى مُوسى وأخيهِ ﷺ وإلى قومِهما؛ فكلٌّ واحدٍ منهُم مُكلَّفٌ بأن يكونَ بيتُه قِبْلةً[5].

ذلكَ الجَعْلُ مِن عَمَلِ مُوسى وأخيهِ وقومِهمَا، فكلُّ أحَدٍ منهُم مُكلَّفٌ بأنْ يجعلَ بيتَهُ قِبْلةً

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/265.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6061.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/605.
(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/144.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/266.

نُكْتَةُ التّعبيرِ عنِ التَّبوُّءِ بالمُثنّى، وعنِ الجَعْلِ بالجمع:

التّبوُّء ممّا يفعلهُ المُكلَّفانِ بالرّسالةِ، والجَعْلُ يحتاجُ إلى جمعِ الرَّأي إلى الرَّأي

أوردَ فعلَ التّبوّءِ بالتّثنيةِ ﴿تَبَوَّءَا﴾، فيما أوردَ فِعْلَ جَعْلِ البيوتِ قِبْلةً جمعًا ﴿وَٱجْعَلُواْ﴾؛ وذلكَ لأنَّ التّبوُّءَ ممَّا يفعلهُ المُكلَّفُ بالرّسالةِ لأجلِ المُرسَلِ إليهم، وهؤلاءِ أحوجُ إلى التَّبوُّءِ من مُوسى وهارونَ؛ فهما محفوظانِ بعينِ اللهِ ولا خَوفَ عليهما، أمّا التّعبيرُ عنِ الاتخاذِ بالجَمعِ، فهوَ ممّا يحتاجُ إلى التَّشاورِ وتضامِّ الآراءِ[1].

سرّ تكرار لفظ البيوت:

إظهارُها في مقامِ الضَّميرِ للتّمكّنِ والتّقرّرِ في الذّهنِ

في إيقاعِ الظّاهرِ موقعَ المُضمرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ بإعادةِ ذِكرِ البيوتِ، ولمْ يُكَنِّ عنها بالضّميرِ بقولِهِ: (واجعلوها)؛ ليُمكِّنَ دلالتَها، ويُقرِّرَ مضمونَها في الذّهنِ؛ فتكونَ الإضافةُ عهديَّةً، يؤيِّدهُ قولهُم: إنّ إعادةَ النّكرةِ معرفة، فهي عينُ الأُولى[2].

دلالةُ جَعْلِ البيوتِ قِبلةً للصّلاةِ:

الأمرُ بالعبادةِ في بيوتِها إشارةٌ إلى شرفِ أرضِها ورِفعةِ قَدْرِها

في جَعْلِهم البيوتَ قِبلةً للصّلاةِ دلالةٌ؛ فإنَّ الأمرَ بالعبادةِ في تلكَ البيوتِ فيهِ إشارةٌ إلى مكانةِ أرضِها وشرفِها، وسُمُوِّ قدرِها ورفعتِها[3].

علّةُ نسبةِ البيوتِ إليهم:

البيوتُ أصبحتْ معروفةً ومِلْكًا لهم، والإضافةُ للعهدِ

نسبَ البيوتَ في قولِهِ: ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ للضّميرِ العائدِ عليهم، وعِلَّةُ ذلكَ: أنّها أصبحتْ معروفةً، وأنّها مِلْكٌ لهمْ؛ فالإضافةُ للعهدِ[4].

إيثارُ لفظِ (القِبلةِ):

القِبلة بمعنى التّوجُّهِ إلى الجهةِ الّتي يُصلّونَ إليهَا

آثرَ التّعبيرَ بلفظِ القِبلةِ الّتي هيَ اسمٌ لجهةِ الكعبةِ؛ لأنَّ قِبلةَ البلادِ المصريَّةِ كقِبلةِ المدينةِ – وهيَ الجنوبُ – متوسطةً بينَ المشرقِ والمغربِ؛ فيكونُ التّعبيرُ عنها حكايةً لقولِ مُوسى عليه السلام، بمعنى التّوجُّهِ إلى الجهةِ الّتي يتوجّهونَ إليها في صلاتهم؛ وهي قِبلةُ إبراهيمَ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/545 - 546.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/545.
(3) القلقشنديّ، صبح الأعشى: 3/305.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/160.

عليه السلام؛ فيكونُ أمرُ بني إسرائيلَ ماضيًا على مِلّةِ إبراهيمَ، قبلَ النَّسخِ والتّوجُّهِ إلى القُدسِ[1].

إذا كانَ جَعْلُ البيوتِ قبلةً، يعني: متقابلةً، بعضُها يُقابلُ بعضًا[2]، فقد يكون الغرضُ مِن هذه الكيفيَّة في السّكن هو الحراسَة وسُهولة المراقبةِ والتّأمين، والتّبليغ وأداء العبادات[3].

نُكْتَةُ تنكير لفظِ ﴿قِبْلَةً﴾:

في تنكيرِ لَفْظةِ ﴿قِبْلَةً﴾ نُكْتَةٌ؛ فإنَّ القِبلةَ بمعنى المصلّى الّذي يُصلُّونَ فيهِ، بمنأى عن فرعونَ وكَيدِهِ؛ ليَأمَنوا على أنفسِهم وأهليهم[4]، وكأنَّ التّعبيرَ القرآنيَّ نَكّرَ اللَّفظةَ بُغيَةَ إخفائِها عن عيونِ فرعونَ وقومِهِ، الّذينَ كانوا يترصّدونَ المؤمنينَ مِن قومِ مُوسى عليه السلام.

بلاغةُ المجازِ في لفظِ ﴿قِبْلَةً﴾:

ومعنى لفظِ القِبلَةِ هنا: المُصلّى أو المساجدُ المتوجِّهةُ نحوَ القبلةِ، وهيَ الكعبةُ، وعلى أيّ التّفسيرَيْنِ فهيَ من بابِ المجازِ بعلاقةِ اللّزومِ أو الكُلّيَّةِ والجزئيَّةِ؛ فتكونُ القِبلَةُ مَجازًا عنِ المُصلّى، أو عنِ المساجِدِ[5].

والقِبْلَةُ هي الأصلُ الّذي يكونُ عليه المرءُ مِنَ الاستقبالِ، فهيَ مكانٌ للصَّلاة عُرفًا، ولَمّا لمْ تكن كذلكَ هنا، فهيَ مؤوَّلَةٌ بالمُصلَّى في حالِ اتِّخاذِ البيوتِ للسُّكنى، فالصَّلاةُ سببٌ لإطلاقِ المُصلَّى على المكانِ، ثمَّ إنَّ شرطَ صِحَّةِ الصّلاةِ هيَ القِبلَةُ[6].

دلالةُ العطفِ بالواوِ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾ معطوفٌ على ما سبقَهُ، والعطفُ

القِبلةُ مِنَ التّقابلِ؛ أي يجعلوا بيوتَهم متقابلةً؛ لتمكينِ التّبليغِ وإقامَةِ الصّلاةِ

تُصلُّونَ في المساجدِ المتَّخَذَة قِبلةً، مُتَخفِّينَ مِن كيدِ فرعونَ ومَلَئِهِ؛ لتأمنوا على أنفسكُم

القِبلَةُ دالَّةٌ على المصلّى، أو المساجدِ مجازًا

القِبلَةُ هيَ المُصلَّى، ولا تصحُّ إقامةُ الصّلاةِ فيهِ إلّا باستقبالِ القِبلَةِ

الأمرُ بإقامة الصَّلاةِ إتمامُها بركوعِها وسُجودِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/266.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/144.
(3) الطّباطبائيّ، الميزان: 11/114.
(4) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/361.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/160.
(6) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/545.

هنا ذُو دلالةٍ لطيفةٍ تكادُ تكونُ خافيةً؛ فإنَّ هذهِ الجملةَ تكادُ لغيرِ المتبصِّرِ أنْ تكونَ تكرارًا للجملةِ الّتي سبقتْهَا، وهيَ: (جَعْلُ بيوتهمْ قبلةً)، أيْ: للصّلاةِ؛ لتَدُلَّ هذهِ الجملةُ على تمامِ صلاتِهم، بركوعِها وسجودِها[1]، على الرَّغمِ ممَّا يعتريهم مِن خَوفٍ وَوَجَلٍ مِن فرعونَ ومَلَئِهِ؛ ولذلكَ كانَ مِن هَدْيِهِ ﷺ أنَّهُ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى[2].

معنى جملةِ الأمرِ:

اتّخاذُ البيوتِ في الرَّحيلِ مَظِنّةَ الشُّغلِ عن إقامةِ الصّلاةِ؛ فأُمِرُوا بالمحافظةِ علَى إقامتِها

معنى الأمرِ في قولِه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ أيْ: المفروضةَ عليهم من قَبْلِ مُوسى ومِن بَعْدِه، هو لأجلِ المحافظةِ على هذا الرُّكنِ المهمِّ؛ فإنَّ اتّخاذَهُمُ البيوتَ كانَ وهُم في حالةِ الرّحيلِ والسَّفرِ، ومَن كانت هذهِ حالتُهُ فمَظِنَّتُهُ الانشغالُ عن إقامةِ الصّلاةِ؛ فلذلكَ نبَّهَهُم الحقُّ سبحانَه إلى المحافظةِ عليها مُدَّةَ تَرْحالِهم[3].

توجيهُ جَمْعِ فِعْلِ الإقامةِ، وفاعلهُ ضميرُ الرَّفعِ (الواو):

أقيموهَا جماعةً بحدودِها وأركانِها، مستخفينَ ممّن يؤذيكُم؛ تمرُّنًا على الدّينِ، وتثبيتًا له في القلبِ

وقولهُ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ تعبيرٌ دالٌّ على الجمعيَّة، وهو أمرٌ بأنْ يُقيموا الصَّلاةَ جماعةً[4]، فإنّ إقامتهَا فرضٌ على الجميعِ بأركانِها وحدودِها، جميعًا مُستخفينَ ممّنْ يُؤذيكُم، جامعينَ بينَ سَبَبَي النَّصرِ: الصّبرِ والصّلاةِ؛ تدرُّبًا على الدّينِ وتثبيتًا للقلبِ.

الاتّحادُ في الاتّجاهِ مُعِينٌ علَى اتّحادِ القلوبِ

وفي التّعبيرِ بفعلِ الإقامةِ مجموعًا حِكْمَةٌ؛ فقد أمرَهُم الحقُّ سبحانَه أنَ يتوجَّهوا في صلاتهم إلى جهةٍ واحدةٍ، وهذا التَّوجُّهُ شرطٌ في الصّلاةِ، فهذا الاتّحاد في الاتجّاهِ يَصْحَبُه اتِّحادُ القلوبِ[5]، ففي حديثِ أبي مسعود، عقبة بن عمرٍو ﷺ قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ، وَيَقُولُ: اسْتَوُوا، وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ»[6].

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/128.
(2) رواه أحمد، المسند، الحديث رقم: (23297).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/267.
(4) الطّباطبائيّ، الميزان: 11/114.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 11385.
(6) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (432).

وجهُ تعريفِ الصّلاةِ:

أقيمُوا الصّلاةَ الّتي أمركُم اللهُ بإقامتِها

والتَّعريفُ في لفظةِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للعَهدِ، والمعنى: أنّ الحقّ سبحانَه أمرهُم بأن يُقيموا الصّلاةَ المعهودةَ المعروفةَ عندَهم، الّتي أمرهُم بإقامتِها[1].

سِرُّ تقديمِ جعلِ البيوتِ قِبلةً على إقامِ الصّلاةِ:

التّوجُّه إلى القِبلةِ مِن مُقدّماتِ الصّلاةِ والمدخلُ إليها

قدّمَ جملةَ جَعْلِ البيوتِ قِبْلةً: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةً﴾، على جملةِ إقامةِ الصّلاةِ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأنّ التّوجُّهَ إلى القِبْلةِ مِن مُقدّماتِ الصّلاةِ؛ إذْ لا تُقبَلُ صلاةٌ مِن دونِ ذلكَ، فَبَدأ بتثبيت أوّلِ الشّروط؛ تحقيقًا لتمام ما يتبعُها وصِحَّته.

وجهُ الاكتفاءِ بالصّلاةِ دونَ الزّكاةِ:

استعبَدَهُم فرعونُ وأخذَ أموالَهم، فباتوا فقراءَ ليسَ عليهم زكاةٌ

وردَ التّعبيرُ في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ غيرَ مقترنٍ بإيتاءِ الزّكاة، كما هوَ شأنُهُ في غالبِ القرآنِ؛ لأنَّ فرعونَ كانَ قَدِ استعبدَهُم وسَبَى أموالَهُم؛ فباتوا فقراءَ ليسَ عندهُم ما يُزكُّونهُ، إذْ ليسَ على الفقيرِ زكاةٌ[2].

وجهُ إفرادِ فعلِ التّبشيرِ، وجمعِ الأفعالِ قبلَها:

خُصَّ مُوسى عليه السلام بالبشارةِ؛ تعظيمًا لها وللمُبشِّرِ بها

في قولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أسْنَدَ فعلَ التّبشيرِ لواحدٍ، وهو مُوسى عليه السلام، وإنّما خَصَّه به مِن بابِ التّعظيمِ والتّفخيمِ للبشارةِ والمُبشّرِ بها على السَّواءِ[3].

التّثنيةُ راجعةٌ إلى مُوسى وهارونَ، والتّبشيرُ لموسى لأنّهُ الأصلُ في الرّسالةِ

في الآيةِ التفاتٌ مِنَ الجمعِ إلى الإفرادِ، وقبلَهُما التّثنيةُ؛ فإنّهُ ثَنَّى أوّلًا؛ لأنَّ موسى وهارونَ عليهما السلام هما الرّسولانِ المُطاعانِ، في أن يتبوَّءا البيوتَ لقومِهما، ثمَّ جَمعَ الضّميرَ في إقامةِ الصّلاةِ لأنّها فَرْضٌ على كُلِّ أحدٍ، فاقتضى الجمعيّةَ، ثمَّ وَحّدَ فِعْلَ البشارةِ؛ لأنَّ موسى هوَ الأصلُ في الرّسالةِ؛ فكانَ حَرِيًّا بأن تكونَ صادرةً منه[4].

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/531.
(2) الحدّاد، تفسير الحدّاد: 3/406، وحقّي، روح البيان: 4/73.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/364، وابن الأثير، الجامع الكبير، ص: 102.
(4) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع التّفسير: 2/41، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6164.

الـخـطـابُ في جملةِ التّبشيرِ هـو لـلـرَّسـولِ ﷺ عـلـى طريقةِ الالتفاتِ والاعتراضِ

يَحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أن يكونَ خطابًا للرَّسولِ ﷺ على طريقةِ الالتفاتِ والاعتراضِ[1]، تنبيهًا على أنَّ ما يُصيبُ المؤمنينَ مِن عذابٍ وعَنَتٍ، فإنّ عاقبتهُ البُشْرى لهم.

الـعـدول في الـخـطـاب لـلـتَّـنـويـعِ، والتَّوسُّع

والمتتبِّعُ لطريقةِ الخِطابِ في الآيةِ يُلْفِي تنوُّعًا وتَوَسُّعًا فيه؛ فثنَّى في فِعْلِ التّبوُّءِ بقولِه: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾، ثمّ جَعَلَهُ جمعًا في اتّخاذِ المساجدِ وإقامةِ الصّلاةِ بقولِه: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ثمّ أفردَ الخطابَ في فعلِ البِشارةِ بقولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي هذا الانتقالِ المُتكرِّرِ مِنَ التّنويعِ في الخطابِ والتّوسُّعِ فيه[2].

دلالةُ عطفِ جملةِ التّبشيرِ:

جاءتهمُ البُشْرى جـزاءَ خـوفِـهـم وتَـرقُّـبِـهـم والتَّضرُّع لله

لِعَطْفِ جُملةِ التّبشيرِ على ما سبقَها دلالةٌ، فإنَّ العَطفَ مُؤذِنٌ بأنَّ ما أمَرهُم الحقُّ سبحانهُ مِن اتّخاذِ البيوتِ هوَ حالةٌ مُشعِرةٌ بالتّرقُّبِ والخوفِ مِن حصولِ الأخطارِ والأضرارِ؛ لأنّهم دَعَوا اللّه ألّا يجعلَهُم فتنةً، فَدَفْعًا لكلّ ذلكَ جاءَتْهُم البُشرى، بحُسْنِ العاقبةِ والنَّصرِ على الأعداءِ والنَّجاةِ منهم[3].

وجهُ تعريفِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بـ(ال):

المُـخـاطَـبـونَ هـمْ بنو قـومِـهِ المـعـروفـونَ المعهودونَ لديهِ

(أل) التّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هي للعهدِ، أي: "بشّرْ قومَكَ الّذين آمنوا بكَ بحفظِ اللّه إيَّاهم مِن فتنةِ فرعونَ ومَلَئِهِ الظّالمينَ لهم، وتنجيَتِهم مِن ظُلْمِهم، أو بَشِّرْهُم بالنَّصرِ في الدُّنيا، وبالجنَّةِ في العُقبى"[4] فالمخاطَبونَ هم بنو قومِه المعروفونَ المعهودون لديه.

المُـبـشَّـرونَ هم عـامَّـةُ المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ

وإذا كانَ المرادُ مِنَ الخطابِ في جملةِ التّبشيرِ هو الرَّسول ﷺ؛

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/606.
(2) ابن الأثير، الجامع الكبير، ص: 101، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 1/293.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/267.
(4) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 12/328.

فإنّ (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تكونُ للجنسِ، أي: أن تَعُمَّ البشارةُ المؤمنينَ جميعًا.

نُكْتَةُ جمعِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

في الجمعِ تعبيرٌ عن رُسوخِهم في الإيمانِ

في التّعبيرِ عن ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ نُكْتَةٌ، فإنّ الجمعَ أبلغُ مِن قولِه كانَ (مؤمنًا)؛ ففيه دلالةٌ على رسوخِهم في الإيمانِ[1]، وأنّهم المتمرِّسونَ فيهِ، الثّابتونَ عليهِ، المجتمعون على تَمَثُّلِ شرائطه سلوكًا.

مناسبةُ وَصْفِهِم بالمؤمنيَن بعدَ وَصْفِ أتباعِ فرعونَ بمختلفِ النُّعوتِ:

لمدحِهم بالإيمانِ وللإشعارِ بأنّهُ المدارُ في التّبشيرِ

وصَفَهم بـ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بعد أنْ نَعَتَ قومَ فرعونَ وأتباعَه بمختلفِ النّعوتِ، ووضعَهُم هنا موضعَ ضميرِ القومِ، للإشارةِ إلى أنّهم ممدوحونَ بالإيمانِ، وللإشعارِ بأنَّ الإيمانَ ركنٌ يقومُ عليهِ التّبشيرُ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البَيْتُ والمنزل والمسكن:

الانتقالُ يُناسبُ المأوى المؤقَّت، دونَ النَّظرِ إلى ماهيَّته

البيتُ: اسمُ جِنْسٍ للمكانِ المتَّخَذِ مَسكنًا لواحدٍ أو عَدَدٍ مِنَ النَّاسِ في غَرَضٍ مِنَ الأغْراضِ[3]، ولا يُشترط فيه أن يكون مبنيًّا، ولكن يُشترط أن يكون لعائلةٍ واحدةٍ، لا يُشاركهم فيه أحدٌ؛ قد يكونُ خيمةً، أو شُقَّةً، أو دارًا، أو كهفًا، أو حتَّى غُرْفةً في دارٍ أو مأوًى أو نُزلٍ.

أمَّا المنزلُ: فاسْمٌ لما يشْتَمل على بيُوتٍ وصَحنٍ مُسقّف ومَطبخٍ، يسكنهُ الرَّجل بعياله[4]. والمَسْكَن: مَحَلُّ القَرارِ، وهو مَفْعَلٌ، اسْمُ مكانٍ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّكُونِ[5]، وهو حيثُ يسكنُ الإنسانُ، مِثل البَيت، ولا يُشترَط فيه أن يكون مَن يبيتُ في المكان مرتبطًا بالآخرين، فكلُّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/179.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/171.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/237.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 239.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/29.

بيتٍ مَسكنٌ؛ وليس كلُّ مسكنٍ بيتًا. ولمَّا كان السَّفر والانتقال مَظِنَّة الاستقرار المؤقَّت ببيتٍ يُؤوي دونَ النَّظر إلى اكتمال مَرافِقه؛ ناسَبَ ذلك لفظُ (البيت)، لما تَقدَّم مِن دلالته على البناء دونَ شرط ماهيّته.

التَّبوُّء والاتِّخاذ:

يناسب لفظُ (التَّبوُّءِ) رجوعَهم إلى موطن سُكْناهم السَّابق

التَّبوُّءُ: تفعُّلٌ مِنَ البَوْءِ؛ يعني: الرُّجوعَ، وهو اتّخاذ المباءَة، وهي البُقعة الَّتي يَبُوء إليها صاحبُها؛ أي: يَرْجِع إليها بعدَ انتشاره في أعماله[1].

والاتِّخاذ: جَعْلُ شيءٍ لفائدة الجاعِل، وهو مُشتقٌّ مِنَ الأخذ؛ لأنَّ المتَّخِذَ يأخذ الشَّيء الَّذي يَصطفيه[2].

والجامع بينَ المعنَيَيْن النُّزولُ في شيءٍ ذي فائدةٍ. واختيارُ لفظِ التَّبوُّء لدلالته على الرُّجوع المناسب لعودة بني إسرائيل لمصر الّتي كانوا يسكنونها مِن قَبلُ.

(1) الطّريفيّ، التّفسير والبيان لأحكام القرآن: 3/1595.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/229.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»